التقابل في سعيد أبي النحس ، وامتداداً في رسم الكاركتر الهزلي لشخصية المتشائل ونسبه الى جارية قبرصية «فطلقها ، حين وجدها تخونه مع الرغيف بن أبي عمره» ص ٦٣ وأبي عمرة كناية عن الجوع ويتابع : «أما أنا فقررت أن لا أموت مقوس الظهر» ص ٨١ فمن خلال جملة مفارقات في السلوك تعبر عن المواقف التي تعيشها الشخصية بين عالم الدياميس وعالم الممارسات الحياتية في ظل نظام الاحتلال الاستيطاني ، وسخريته تطال الكثير من الأوهام الايديولوجية العالقة في فضاء السياسة والصراع العربي الاسرائيلي ، عندما يشير إلى ما حدث بقرية «برطعة» في المثلث حين مرّ بها قطيع بقر اردني مسروق ص ١٢٠ . وفي سخريته لا يقدم الموقف ، بل ما وراء الموقف ، لأنّ في السخرية تناول للحدث في السياق الواقعي فيما هي تومىء إلى حقيقة مستبطنة في الايديولوجيا والسياق المضمرة خلف الاحداث . هكذا يكتشف يعقوب أو يصرح وهو اليهودي المسؤول مباشرة عن علاقة أبي النحس بالجهاز أنه على خازوق وأن لكل خازوقه ، وبالطبع لن أشير فقط إلى أن الكاتب لم يعتمد في سخريته على المفارقات اللفظية فقط كما يسعى لأن يؤكد غالب هلسا ، بل أشير إلى حقيقة لم يحالفه الحظ في التقاطها ، فأسلوب التهكم والمبالغة في الأدب الساخر يأتي رداً على حركة الواقع المعنة في اللامنطق ، أي المفارقة في وجود وايديولوجيا النظام الصهيوني وممارساته أي تدفع بالمواطن خارج حدود المنطق والمعقولية ، فهي في منطقها العدواني الخاص تجعل منطق المواطن غير كافٍ لاستيعاب أزماته فيلجأ للسخرية كما يشير الكاتب «لقد حاولت أن استعيد في قصة المتشائل تجربة العودة من لبنان إلى حيفا من حيث الطريق لا من حيث العائد ، وأن استعيد كذلك لقائي المأساوي بحيفا بعد النكبة والتجأت الى اسلوب السخرية في هذا الوصف لأن المأساة كانت أقوى من أن تتحملها الذاكرة»[١١] وهذه الملاحظة تقودنا إلى طبيعة الدلالة في هذا النمط من القصّ الاخباري أو الحكارية ، إذ لا تأتي مصداقيتها من مصداقية الحدث أي من واقعيته في سياق منطق واقعي الحدوث بل من دلالته التي يشي بها ويشير إليها وفي هذا المستوى فقط تتحدد عظمة الكثير من الروايات الحديثة الوافدة من أمريكا اللاتينية . والتي يغلب على الحدث فيها الطابع التركيبي أو اللاواقعي نسبياً ، إنما أهميته تكمن في مدى التصاقها بالواقع الاجتماعي والسياسي الذي تستبطنه والمتشائل يشير في نهاية رسائله إلى هذه الحقيقة القيمة فيقول «فإذا صدقتم حكاية التجائه إلى إخوته الفضائيين ورحتم تبحثون عنه في دياميس عكا القديمة فقد يصيبكم ما أصاب المحامي مع المجنون» ص ١٩٧ أي هنالك مستوى من اللاواقع في المتخيل الروائي يرتبط ويشير إلى واقع محدد في مستوى الدلالات السياسية والاجتماعية ، وفي هذه العلاقة بالذات يرتد السؤال الساخر في خطاب اميل حبيبي ليغني مساحة الفعل في فضاء الرواية وفي دلالاتها أيضاً .

أجد ضرورة التوقف قبل أن تستغرقنا الاشارات النظرية كي نعود إلى المتشائل في صيرورته عبر الحدث الروائي أو المتخيل الروائي فهو سعيد أبي النحس وفي هذه المفارقة اللفظية علاقة أعمق في مستوى الدلالات النفسية والسلوكية للشخصية الروائية فهو سعيد في علاقته مع الحياة أو مستوى طموحه للارتباط بالحياة ولو عبر المؤسسة الحاكمة . لكنه تاريخياً ابن النكبة والافراز السلبي لها ، تهمّش خارج دائرة الفعل في محاولة المقايضة على المستوى المعاشي ، غير أنّ له مستويين ، الأول يجد ا تعبيره في الحدث الظاهري ، والمسترجع روائياً ابتداءً بتوصية والده إلى الدون سفشارتك وانتهاءً بتعامله مع المؤسسة كعميل ضد شعبه ووطنه . لكنه في مستوى آخر هو منتمي لهذا الشعب ولهذا الوطن ، هذا ما نستحضره عبر الحدث الأخباري عندما اختار العودة إلى حيفا من لبنان ، أو عندما ذهب مع أصدقائه لطلب السلاح إثر انتفاضة الـ ٣٩ . هذان المستويان تعايشا معاً في فضاء الرواية بين حياة المتشائل وعلاقته بالمؤسسة وبين حياته في الدياميس والتي انتجت في مستوى الفعل الروائي علاقة حبٍّ مع «يعاد» وزواج من «باقية» وهما اسمان - رمزان في دلالة للشعب الفلسطيني المشطور بين المنفى والاحتلال . وحتى ابنه فهو «ولاء» ويشير في صدد تسميته أنه عنى به الولاء للدولة وذلك مهابة الرجل الكبير ، لكنه أتى ولاءً للأرض والشعب وفي هذا المستوى تبدو الدلالة اللفظية واضحة . وفي علاقة الجدل بين هذين المستويين يتم التطور من الاستلاب واللا فعل إلى الانتماء والبحث عن ارتباطاته الحقيقية في بحثه عن «يعاد» والتقائه بأولادها «سعيد الفدائي» و «يعاد الثانية» وما حضور «سعيد الفدائي» إلا الوجه الآخر لسعيد المتشائل ، لكنه الوجه النقي في دلالته السياسية ، الوجه المقاوم والفاعل ، لذلك يقدمه لنا الكاتب مهيباً حتى في دمه الأحمر بعكس المتشائل ، الكاركتر الساخر في سلوكه . وهنا لا بد من الاشارة الى هذه التقابلات اللفظية ودلالتها النفسية والسلوكية في البناء الروائي بين سعيد المتشائل وسعيد الفدائي . بين باقية الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال ويعاد الشعب الفلسطيني في المنفى . وكما قلت فالكاتب مولع بالتلاعب اللفظي والتقاط الكلمات الغريبة «كأبي عمره» كناية عن الجوع . ولكنه في سياق القص الإخباري يسترسل مع اللغة المحكية والتراكيب الاستعمالية الشائعة ، وكأنه في علاقته مع اللغة ينطلق من دلالتها المعرفية باعتبارها توضع لمجموعة من المصطلحات الصوتية تأخذ طابع العمومية والشمول أي تصبح لغة الأمة في صيرورة هذه الأمة للاستقرار عبر تشكلها الحضاري بتأثير الواقع كمعطى اجتماعي وكعلاقات انتاج واستهلاك . أي اللغة في استقرارها كمعانٍ تتبع لعلاقة التطور الاجتماعي بعيداً عن القواعد النحوية وفي ذلك خروج من أزمة التوصيل وتكريس الخطاب الأدبي في علاقته بين الابداع والتلقي كشكل للفعالية الاجتماعية تتبلور عبر اللغة ، وفي هذا الإطار تحقق رواية المتشائل كامل طموحها في تقديم نموذج روائي يعتمد شكل الخطاب الاخباري عبر شخصية الراوي ومستمداً الشكل البنائي للحكاية والاسلوب الساخر معاً من مؤثرات تراثية ، تتضافر في اسلوب استخداماته اللغوية لتكتسب حضورها لدى الطرف الآخر المتلقي .

ونؤكد مرة أخرى أن الحكاية لا تفهم في سياق الحدث كمعطى مستقل ، بل في سياق الدلالة التي يومىء إليها ، كذلك شخصية المتشائل تتمتع بأكثر من مستوى يتفاعل كل منها مع الآخر في علاقة جدلية تدفع بها للتطور من مستوى الاستلاب إلى مستوى الانتماء وخلو النقيض «سعيد الفدائي» وفي ذلك استحضار للقضية الفلسطينية في مستواها السياسي والذي يمثل هاجس الكاتب منذ البداية ، وهذا ما دفع «نبيه قاسم» الى التنويه[١٣] : «كانت القفزة الكبيرة التي جعلت روايتنا المحلية تحتل مركز الاهتمام الأول في أدبنا المحلي بإصدار إميل حبيبي [الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل] سنة ١٩٧٤ حيث أشغل عالم ادبنا العربي .. لفترة طويلة وما يزال ..»

هوامش

(١) الاعمال الكاملة - اميل حبيبي . سداسية الأيام الستة .
الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل .
وقصص اخرى .
منشورات منظمة التحرير الفلسطينية - دائرة الاعلام والثقافة .
تعود كل الاستشهادات الورادة اعلاه من المادة القصصية لهذه الطبعة .

(٢) مجلة الكرمل - العدد الأول .
حوار مع اميل حبيبي - اجرى الحوار محمود درويش والياس خوري .

(٣) راجع مجلة الطريق . العدد ١ السنة ٤٠

(٤) «مختارات من القضية الفلسطينية» منشورات منظمة التحرير الفلسطينية - دائرة الاعلام والثقافة - تقديم فخري صالح .

(٥) البيادر مجلة ادبية ثقافية اجتماعية تصدر في الأرض المحتلة السنة الخامسة . العدد الأول .

(٦) و (٧) مجلة الكرمل ، العدد الأول . حوار مع اميل حبيبي . العدد الثاني .

(٨) و (٩) مجلة الكرمل . حوار مع اميل حبيبي ورزنة لأعماله - غالب هلسا .

(١٠) مجلة الكرمل - العدد الأول . رضوى عاشور «موقفان وطريقان»

(١١) و (١٢) مجلة الكرمل - العدد الأول . حوار مع اميل حبيبي .

(١٣) البيادر - السنة الخامسة ، العدد الأول .

بريد القراء

روزنامة

اذا كان شهر ايلول بمثابة «شهرالشؤوم» بالنسبة للشعب الفلسطيني ، من حيث انه يذكرنا بالمذابح الكبرى التي ارتكبت بحق هذا الشعب ، بدءاً بمجازر عمان عام ١٩٧٠ بمجازر صبرا وشاتيلا التي ارتكبها «دراكولا» الصهيوني السفاح بيغن فإن لشهر آذار نكهة خاصة بالنسبة للشعب الفلسطيني المناضل . فهذا الشهر معروف بوقائعه الفلسطينية المشهودة :

■ في الحادي والعشرين من اذار عام ١٩٦٧ ، حدثت المواجهة الأولى بين الفدائيين الفلسطينيين والجيش الصهيوني ، وكان يوم الكرامة الخالد اذ استطاع عدد قليل من الثوار الفلسطينيين صد هجوم صهيوني مدعم بكافة الأسلحة الثقيلة والطائرات .

وكانت تلك المعركة نقطة تحول في مسيرة النضال المسلح الفلسطيني ضد العدو الصهيوني ، لأن معركة الكرامة كانت اول اختبار لصلابة هذه الثورة وعمق جذورها .

■ في العاشر من اذار ١٩٧٣ شيعت مدينة غزة المحتلة الشهيد محمد الأسود «جيفارا غزة» قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في الداخل وعضو المكتب السياسي للجبهة ، ورفاقه الأبطال الذين استشهدوا بعد معركة ضارية شهدتها شوارع المدينة بين اولئك الأبطال وبين رجال الحاكم العسكري الصهيوني آنذاك «ارئيل شارون» .

■ في الحادي عشر من آذار عام ١٩٧٨ ، وصلت الى الساحل الفلسطيني المحتل مجموعة من الفدائيين الفلسطينيين بقيادة المناضلة دلال المغربي في عملية جريئة زلزلت الكيان الصهيوني ، وأفقدته الوعي والسيطرة على تصرفاته الجنونية .

■ في الثلاثين من اذار ١٩٧٦ كان يوم الأرض المجيد يوم الأنتفاضة الكبرى لجماهير الأرض المحتلة عام ١٩٤٨ ، على مغتصبي الأرض ، على سالبي حقوق الشعب الفلسطيني في الجليل الأعلى .

بيروت تغتسل بالبارود

آه يا بيروت ما أجملك
عندما كنت تغتسلين بالبارود
دعيني فقط اجتاز موتي
تحت عينيك المتوهجتين
بأحلام الفقراء
وابسطي لي ذراعيك
لأغفو عن هدهدة القنابل
والكون الجديد
فقلبي الصغير سينفجر
وخريف العمر سيرحل
يا بيروت
دعيني امتلك اغنيتي
وحلمي وطريقي

ابو حازم - حمص

هذه الرسالة

الى هدفي وهدف الأحرار في كل العالم

رفاقي : رفاق الهدف
للمرة الاولى اكتب اليكم
عرفت المجلة منذ سنين ولم اتطلع عن قراءتها .. كنت معكم .. عندما انتمت المجلة من الصدور وهأنذا معكم .. وسأبقى معكم حتى نهاية الطريق والوصول الى الهدف .

رفاقي : اليكم اكتب :
بالرغم أني فقير
ولي بكم العزاء
بكم أكبر .. بكم أمتد
يارفاقي :
تجذروا استديناً تجذروا ..
ازرعوا القرنفل والفل
كلوا الزيت والخبز والزعتر
احبكم .. أحبكم
حبي لورد أحمر
حبي للشمس والمنجل
حبي للعمال والمعمل
حبي لأمي وأرضي
وأنتم الأكبر ..

أ. العلي
الرقة

ردود خاصة

علاء الدين حاطوم - دمشق
يكفي ارسال صورتك مع قيمة الاشتراك وترى ما هو مبين على الصفحة الثانية تحت بند «الاشتراكات» كي تصبح متمتعاً وتصلك المجلة بانتظام .

○ الصديق غسان اسماعيل - جامعة تشرين .
شكراً لرسالتك وشاركنا النباهة .. وستصل الى تلبية رغباتك على صفحات المجلة ، ونرحب بك صديقاً للمجلة ونأمل استمرار ارسال ملاحظاتك القيمة .

○ الصديق : هادي - طرطوس .
شكراً لمشاعرك الطيبة تجاه «الهدف» ونأمل مراسلة المراسلة على ان تكتب لنا بخط اكبر وضوحاً على وجه واحد من الورقة .

○ الصديق ابو حازم - حمص .
قصيدتك «ثلاث تكوينات شعرية» جيدة ومؤثرة .. ويؤسفنا كل الأسف اننا لم نتمكن من نشرها كاملة لضيق الصفحات .. وننشر لك على الصفحة جزءاً منها . شكراً لك واعلامك .